درس رقم 10: الأدب الساخر

تمهيد:

يعد الأدب الساخر أحد أرقى الفنون الإنسانية التي تعكس قدرة العقل على مواجهة الأزمات بالفكاهة، وهو يتجاوز كونه وسيلة للإضحاك ليصبح أداة نقدية حادة تهدف إلى كشف عيوب المجتمع وتناقضات النفس البشرية. وقد عرف العرب هذا الفن منذ القدم فجعلوا منه سلاحاً فكرياً يعوض القوة المادية أحياناً، كما استخدموه وسيلة للترويح عن النفس وكسر الرتابة

أولا: تعريف الأدب الساخر وخصائصه الفنية

يعد الأدب الساخر جنساً أدبياً قائماً على توظيف الفكاهة والتهكم كأدوات نقدية تهدف إلى كشف التناقضات في السلوك البشري أو الواقع الاجتماعي. وهو خطاب ذكي لا يقف عند حدود الإضحاك المجرد، بل يتجاوزه إلى تقديم رؤية تحليلية نقدية مغلفة بقناع من الهزل، مما يجعله وسيلة فعالة للاحتجاج والمقاومة الثقافية. من خصائصه:

- **المفارقة** :وتعني رصد الفجوة العميقة بين ما يدعيه الفرد وبين حقيقته، أو بين ما يظهره الواقع وبين ما يجب أن يكون عليه.
- **التلميح** :حيث يبتعد عن التصريح المباشر ويلجأ إلى الرمز والتلميح، مما يمنح الأديب مساحة من الحرية في نقد القضايا الحساسة.
- **التضاد والمبالغة** :يعتمد الساخر على تضخيم العيوب وتصويرها بشكل كاريكاتوري ، مستخدماً الثنائيات الضدية (كالجد والهزل، والقوة والضعف).
- **الوظيفة الحجاجية** :يهدف هذا الأدب إلى إضعاف موقف الطرف المسخور منه ، فهو سلاح فكري يسعى لإقناع المتلقي بفساد أو بفكرة معينة عبر السخرية من منطقها.
- **الروح النقدية** :لا يبحث الأدب الساخر عن الضحك لذاته، بل هو ضحك "هادف" يحمل في طياته دعوة مبطنة للإصلاح أو لفت الانتباه إلى مناطق الخلل والفساد في بنية المجتمع.

الأستاذة: سمهان لحلو

ثانيا: السخرية في التراث الشعري القديم

تمثل "النقائض" في العصر الأموي أولى بذور السخرية السياسية والاجتماعية المنظمة حيث برع جرير في استخدام هذا الفن للنيل من خصومه من خلال تصويرهم بصور مهينة تجعلهم أضحوكة بين القبائل. ويظهر ذلك بوضوح في نقائضه ضد الفرزدق ومن ذلك قوله:

لَقَد وَلَدَت أُمُّ الفَرَزدَقِ فاجِراً .. وَجاءَت بِوَزوازٍ قَصيرِ القَوائِمِ

وَما كانَ جارٌ لِلفَرَزدَقِ مُسلِمٌ .. لِيَأمَنَ قِرداً لَيلُهُ غَيرُ نائِمِ

يُوَصِّلُ حَبلَيهِ إِذا جَنَّ لَيلُهُ .. لِيَرقى إِلى جاراتِهِ بِالسَلالِمِ

وتتجلى أقوى صور التهكم لديه في رده على الراعي النميري في البيت المشهور:

فَغُضَّ الطَرفَ إِنَّكَ مِن نُمَيرٍ .. فَلا كَعباً بَلَغتَ وَلا كِلابا

أما في العصر العباسي فقد انتقلت السخرية إلى مستوى "التشخيص الكاريكاتوري" مع الشاعر ابن الرومي الذي امتاز بقدرة هائلة على الوصف الدقيق للعيوب الجسدية والنفسية. وقد خلّد ابن الرومي شخصيات كثيرة بسخريته كما فعل في وصفه لأنف "ابن حرب" الضخم حيث يقول:

لك أنفٌ يابن حربٍ .. أنِفت منه الأنوف

أنت في القُدسِ تصلي .. و هو في البيت يطوف

وقال أيضاً ساخراً من طول اللحية مع قلة العقل:

إن تَطُل لحيةٌ عليك وتعرض .. فالمخالي معروفة للحميرِ

ثالثا: السخرية في التراث الشعري الحديث

في العصر الحديث ظهر "الشعر الحلمنتيشي" كوارث للسخرية القديمة بأسلوب يمزج الفصحى بالعامية وهو فن يقوم على معارضة القصائد لنقد الواقع الاجتماعي والسياسي. ويبرز الدكتور مصطفى رجب كأحد أعلام هذا الفن في ديوانه "حلمنتيشيات" حيث يسخر من أوضاع

الأستاذة: سمهان لحلو

التعليم والمثقفين بمرارة تضحك القارئ وتبكيه في آن واحد ومما قاله في معارضة لقصيدة المتنبي بشكل ساخر:

الفُولُ وَالطَّعْمِيَّةُ وَالبَيْضُ يَعْرِفُنِي .. وَالجُبْنُ وَالزَّيْتُونُ وَالخُبْزُ

وَالعَسَلُ وَالصَّحْنُ وَالمِلْعَقَةُ وَالكُوبُ فِي يَدِي .. وَالسَّمْنُ وَالزُّبْدُ وَالبُوتَاجَازُ وَالشُّعَلُ

أَنَا الَّذِي نَظَرَ الأَعْمَى إِلَى طَبَقِي .. وَأَسْمَعَتْ قَرْقَعَاتِي مَنْ بِهِ صَمَمُ

كما نجد السخرية السياسية اللاذعة عند أحمد فؤاد نجم الذي جعل من شعره وسيلة للتحريض والاحتجاج ضد الظلم واستخدم لغة الشارع البسيطة للسخرية من السلطة بجرأة غير مسبوقة ويقول في قصيدة "هنا إذاعة زمان:"

هنا إذاعة زمان .. من معهد النسيان

بنهديكم ونحييكم ونرغي معاكم شوية

عن اللحمة وعن الفول وعن أخبارنا الوردية

وعن إنجازنا في التوفير وعن أحوالنا في التغيير

وعن إخلاصنا للشعب وعن أحمالنا في التعب

وفي السياق ذاته وظف هشام الجخ السخرية في قصيدة "جحا" ليعبر عن انكسارات المواطن العربي بأسلوب تهكمي يلامس الوجدان حيث يقول:

يا مصر يا أمنا يا بهية .. بتضحكي ليه عاللي حصل فيَّ؟

أنا اللي كنت بقول عليكِ الجنة في الدنيا .. و أثاري الجنة بتوزع كتب مدرسية

وتدي معونة للغلابة في كيس طعمية

!ويا مصر يا أمنا يا غالية .. بتضحكي ليه والقعدة مش عالية؟

ده جحا اللي كان بيبيع حميره بالرخص .. بقى بيبيع مشاعره في أغنية إعلانية

الأستاذة: سمهان لحلو

يستمد هذا المقطع قوته من إسقاط الشخصية التراثية الساخرة "جحا" على الواقع المعاصر لبيان حجم التردي القيمي والاجتماعي.

رابعا: السخرية في التراث النثري

يتجلى النثر الساخر في أبهى صوره عند الجاحظ في كتابه "البخلاء"، حيث ابتكر أسلوباً فريداً يحلل فيه نفسية البخيل ويدفعه للدفاع عن بخله بمنطق مضحك. فالجاحظ لا يشتم البخلاء بل يصور حركاتهم وتبريراتهم بطريقة تجعل القارئ يضحك من "المفارقة" بين ذكاء الشخصية في التوفير وبين غبائها الاجتماعي، وهو بذلك يقدم نقداً أخلاقياً مغلفاً بالفكاهة الراقية.

أما بديع الزمان الهمذاني فقد وظف السخرية في "المقامات" من خلال شخصية أبي الفتح الإسكندري الذي يمارس الكدية والاحتيال بلسان فصيح. وتكمن السخرية في مقامات الهمذاني في التناقض الصارخ بين المظهر الثقافي الرفيع للبطل وبين أفعاله القائمة على المخاتلة، مما يعكس فساد المجتمع في ذلك العصر وصعوبة العيش الكريم للمثقفين، وكل ذلك في قالب لغوي مسجوع يجمع بين جمال اللفظ وسخرية الموقف

خاتمة

يتبين مما سبق أن الأدب الساخر يمثل جبهة دفاع فكرية وجمالية استطاع الأديب العربي من خلالها تطويع اللغة لخدمة قضايا الإنسان الكبرى. وقد نجحت هذه النصوص في التحول من مجرد فكاهة عابرة إلى وثائق تاريخية واجتماعية تعري زيف الواقع وتنتصر للمبادىء والقيم بأسلوب يجمع بين متعة التلقي وعمق الرسالة. إن استمرار هذا الفن من عصر النقائض وصولاً إلى الشعر الحلمنتيشي والقصيدة المعاصرة يؤكد حاجة الوجدان البشري الدائمة إلى لغة قادرة على قول الحقيقة في قالب من التهكم. ويظل هذا الأدب بنوعيه الشعري والنثري وسيلة فعالة لإحداث التوازن النفسي والاجتماعي داخل المجتمعات العربية حيث يمنح الضحك فرصة للتأمل والمراجعة تمهيداً للتغيير والارتقاء.

الأستاذة: سمهان لحلو